بسم الله الرحمن الرحيم

-

المملكة العربية السعودية
الجامعة الاسلامية
بالمدينة المنورة

-

"المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة"

-

النزعات والدعوات القومية والشعوبية منشؤها وتأثيرها في تفرق الأمة الاسلامية وذهاب ريحها

-

للاستاذ الدكتور / بركات عبد الفتاح دويدار

الاستاذ بالدراسات العليا

كلية الشريعة : فرع العقيدة

جامعة ام القرى : مكة المكرمة

قال تعالى " وان من أمة الا خلافيها نذيـــر " (فاطر : ٢٤)

وكان المأمول أن نرى فكرة الايمان بالمساواة هى المسيطرة على فكـــر الانسانية جمعاء لايمنع من ذلك اختلاف الأوطان أو الأشكال . ولكن الواقع غير هذا . اذ أن الناس لما ابتعدوا عن الايمان بتوحيد الله الذى هو اســـاس دعوة الرسل ترتب على ذلك ابتعادهم عن الايمان بوحدة الانسانية فأرتفعــت طبقةبنفسها فوق ماتستحق وللأسف وجدت من بنى البشر من يصدقها ويرضى ان ينحط بنفسه ليعيش تحت من لايتميز عنه بشئ .

وكانت النتيجة المتوقعة عند ما يقطع الانسان صلته بربه ويخلد الىالارض هى الذلة والتمزق والضياع كما قال تعالى " ومن يشرك بالله فكأنما خر مـــن السماء فتخطفه الطير او تهوى به الريح فى مكان سحيق " (الحج : (٣)

وما كان هذا ليتــم والأديان السابقة على الاسلام باقية على صفائهابل انه تم بامتداد يد التغيير الى هذه الاديان او باختراع أديان من وضع الانسان تصب فيها كل الافكار الضالة المضلة . وبذلك وجدنا الانسانية تنحدر بدل أ ن ترتفع وارتفاعها كان يعنى الشعور بالانسانية كوحدة تدين بالتوحيد لله الـــذ ى خلقها وانحدارها يعنى عدم الشعور بهذا .

وبالتالى يكون التمزق والعنصرية والشعوبية والطبقية وأمثالها .

وهذا ما وقع بالفعل ومما زاد فى شقاء الانسانية أن بعض الضالين عـــزوهــذا الضلال الى أصل دينى كما يزعم اليهود انهم شعب الله المختار وكما يزعــــم البراهمة الذين قسموا الشعب الى طبقات يرجعونها بزعمهم الى أصل الخلقه .

واقع البشرية بعد الكفر بما جاء من عند الله

بعد أن كفر الناس بما جاء من عند الله وجدنا أنواع التمزق بين البشرية واليكم :-

فى الديانة الهندية قسموا الشعب الى طبقات يرجعونها - كما يزعمون- الى أصل الخلقه تحت تأثير اسطورة وهمية .

وهذه الطبقات فى أول الأمر عليا ها "البراهمة" وذلك تبعا لأسطورة فى كتبهم أن خلقتهم من رأس "برهما" . وأن هذا الاسم كناية عن القوة المسماة "طبيعة" والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس ولذلك صاروا عندهم خيرة الانس .

والطبقة التى تتلوهم " كشترى" خلقوا بزعمهم من مناكب" برهما" ويديه ورتبتهم عند رتبة البراهمة " غير متباعدة جدا . ودونهم " وييش" خلقوا من بطن "براهما" .

والطبقة الرابعة " شودر" وقد خلقت من قدمى " براهما"

وهذه الطبقات الأربع انما هى بأصل الخلقة : أى أنه لايمكن لواحد من الطبقة الأدنى أن يرتفع الى الطبقة الأعلى مهما حصل من أسباب الرفعه علميا او ماليا أو ماشابه ذلك من الأمور التى لايعترف بها المسيطرون على الدين .

ولذلك نجد الزواج بين هذه الطبقات ممنوعا فلا يجوز لواحد من طبقة ان يتزوج من طبقة أخرى " اذ أن امتزاج الدماء يعتبر مبدئيا جريمة من الجرائم!

وهذه الطبقات يمكن أن تجمعهم مدينة أو قرية أى أنهم يمكن أن يكونوا مختلطى المساكن .

ولكن هناك نوع من الناس غير معدودين فى طبقة من الطبقات الأربع مثال القصار والحائك ونساج الزبابيل ... الخ ..

" فلا يساكنهم الطبقات الاربع فى بلدة وانما يأوون الى مساكن تقربها وتكون خارجها .

وأما " هادى" و"دوم" و" جندال" وبرهتو" فليسوا معدودين" فى شىء وانما يشتغلون برذالات الأعمال من تنظيف القرى وخدمتها .

وكلهم جنس واحد يميزون بالعمل كولد الزنا .

فقد ذكر أنهم يرجعون الى أب" شودر" وأم" برهمن" خرجوا منهما بالسفاح فهم أدنى الطبقات .

ولا تجد واحدا من طبقة يواكل واحدا من طبقة اخرى فى اناء واحد يضيف البيرونى هذا بقوله :

وكل طبقة من الأربع فانها تصطف فى المواكلة على حدة ولا يشتمل صف على نفرين مختلفى الطبقه ".

هذه هى الملامح العامه لنظام الطبقات فى الديانة الهندية وشر مافيها أنهم يزعمون أنها ترجع الى الدين واصل الخلقة فما كان للذى خلق من قدمى براهما أن يتساوى مع من خلق من رأسه .

ومن يعتدى على نظام الطبقات فانما يعتدى على دينه والعقاب الذى ينزل بهذا المعتدى انما هو باسم الدين المزعوم .

ان نظام الطبقات اخترعه الجنس الآرى وهذا النظام يدل دلالة واضحة على رغبة السيطرة عند هذا العنصر الفاتح الذى كان كل همه الا يضيع بين المواطنين ".

اذا كان النظام فى أول أمره صادرا ممن بيده القوة ثم أرادوا له قوة أكثر فباسناده الى الدين وهنا بلغ من القوة أقصى مايمكن أن يتصور فالامر يطاع اذا كان من صاحب رئاسة ويتأصل اكثر اذا جاء الخلف وساروا على نهج السلف فى هذا الامر ولم يختلفوا عليهم" ثم اذا استند ذلك الى جانب من جوانب ملة فقد توافى فيه التوأمان وكمل الأمر باجتماع الملك والدين وليس وراء الكمال غايةتقصد"

وبذلك اصبح مازعموه دينا هو سبب شقاء الانسان واذا كان الدين هو سبب البلاء هكذا فممن ينتظر الناس العون ؟

فاذا ما تركنا الهند الى غيرها من البلاد نجد نظام الطبقات مسيطرا فى زوايا العالم تقريبا وان كان يختلف فى بلد عنه فى بلد آخر.

ففى فارس كان نظام الطبقات .

" وسير أوائل الأكاسرة تفصح بذلك فلهم فيه آثار قوة لم يقدح فيه تقرب بخدمة ولا توسل برشوة حتى أن أروشيريد بايك " عند تجديده ملك فارس جدد الطبقات وجعل الأساوره وابناء الملوك فى اولاها والنساك وسدنة النيران وأرباب الدين فى ثانيتها والاطباء والمنجمين واصحاب العلوم فى ثالثتها والزراع والصناع فى رابعتها .

ونظام الطبقات هذا فى فارس كما كان له الاثر السيء فى نظرة جماعة من الشعب الى بقية ذلك الشعب سيكون له أثره فى نظرة الفرس الى غيرهم من الشعوب.

واليونانيون كانوا يرون انفسهم على صفات هى من الكمال بحيث لا يشاركهم فيها غيرهم.

انهم ـ كما يزعمون ـ الصفوة وباقى الانسانية هم العبيد ولكل من الفئتين قانونه الخاص به فى السلم والحرب .

واذا كان الشعب اليونانى يؤمن بهذا التمييز فان الفلاسفة جاءوا لا ليخففوا عن الانسانية البلاء الذى حل بها بسبب الضلال . لم يفعل الفلاسفة هذا بل جاءوا ليزيدوا من ويلات الانسانية بمحاولة تأصيل هذا النظام الفاسد فنجد افلاطون يتناول هذا النظام فى كتبه وبخاصة فى كتاب الجمهورية حيث " يكيل بكيلين الواحد لليونان والآخر للأعاجم وينصح للامم اليونانية ان تتعهد فيما بينها العلاقة الودية بل أن تتحالف وتؤلف اسرة واحده فان تحاربت فلا تدمر ولا تحرق ولا يسحق الغالب جميع اهل المدينة المغلوبة كأنهم اعداء بل يضرب الاقلية التى آثارت الخصام ويعامل الباقى معاملة الاصدقاء ويقصر التدمير والتحريق والسحق على محاربة الاعاجم .

ثم يصرح بان اليونان لايسترق بعضهم بعضا وانما يسترقون الأعاجم لأن الرجل العدل لا يسترق قريبه وصديقه بل يسترق عدوه " .

وارسطو يرى ان التميز بين اليونان وغيرهم يرجع الى اصل الخلقه فاليونان ـ على رأيه خلقوا على تقويم كامل ليكونوا سادة على سائر الخلق .

واما غيرهم وهم البرابرة فقد زودوا بقوى جسمانية وقد خلقوا على تقويم ناقص ليكونوا عبيدا مسخرين لليونان .

ومن هنا فان الواجب على اليونان ان يسترقوا غيرهم وان يبقوا على استرقاقهم وبذلك يتم الانسجام فى توزيع الاعمال . . اليونان للاعمال الراقية وغيرهم وهم العبيد للاعمال الجسمانية وبذلك تعمقت الشعوبية عند اليونان

وامثالهم فتصوروا انفسهم سادة واصحاب عقول متميزة كما تصوروا غيرهم عبيدا واصحاب قوى جسمانية فما كان من اعمال الفكر فهو خاص باليونانين وما كان من اعمال الجسم فهو خاص بغيرهم.

وفى العرب قبل الاسلام لم تكن هناك طبقات بالمعنى المعروف عند الهند ولا بالمعنى المعروف عند الغرب - ولكن كان هناك اعتزاز بالاصل الذى ينتسب اليه العربى اعتزازا بلغ حد التعصب .

وانضم الى هذا الاعتزاز بالأصل عوامل أخرى عمقت أسباب الفرقة كالنزاع الشديد الذى كان بين حمير ومضر.

وقد آثار هذا النزاع المتواصل بين حمير ومضر - فى سبيل التفوق من جهة ونيل الاستقلال من جهة أخرى - عاطفة جامحة من الحسد والبغضاء فى قلوب الفريقين وزاد فى سعيرها قصائد شعرائهما الحماسية التى كانوا يشيدون فيها بايام الحرب والسلطان كفوز كنده على بنى تميم (١) وغيرها وكما كانت العرب يتعالى فريق منهم على فريق آخر منهم نراهم جميعا كانوا يتعالون على غيرهم من الامم كما سيأتى فى حادثة رفض النعمان تزويج ابنته لكسرى .

نرى الآن ان هذا التعصب الجاهلى كان يشمل أمم الأرض تقريبا وان كان الشكل يختلف من أمة الى أمة وكلما مرت الايام ازداد تمكنا فى النفوس وورثه الابناء عن الآباء حتى سد على الانسانية منافذ التفكير .

وتقليد الآباء كان هو العقبة الكؤود امام الرسل فى تغيير النفوس الى الخير لأن الرسل كلما حاولوا اصلاحا كان الجواب كما قال تعالى" بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك

(١) تاريخ العرب والتمدين الاسلامى سيد امير على ترجمة رياض رأفت ص٥٦

فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون" (الزخرف : ٢٢ - ٢٤).

والان نضرب بعض الامثلة كدليل على تأصل فكرة العنصرية والشعوبية فى النفوس الجاهلية .

الحادثة الاولى :

عند ما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضاء وبعد ان انتهى من اعمال العمرة امر بلالا فأذن بالظهر فوق ظهر الكعبة فقال عكرمة بن أبى جهل لقد اكرم الله ابا الحكم لم يسمع هذا العبد يقول مايقول !! وقال صفوان بن أمية الحمد لله الذى اذهب ابى قبل ان يرى هذا . وقال خالد بن اسيد الحمد لله الذى أمات ابى ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم ابن ام بلال ينهض فوق الكعبة .

وغطى سهيل بن عمرو ورجال معه وجوههم حين سمعوا ".[(١)]

الحادثة : هنا نرى روءس الكفر فيهم الجاهلية باوضح معانيها .

الحادثة الثانية :

موقف كسرى عند ما وصله خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يدعوه فيه الى الاسلام فقد مزق كسرى الكتاب لا لأنه درس الاسلام فلم يقتنع به بل لأنه يرى نفسه أعلى من المرسل . فقد روى أنه قال " يكتب الى هذا وهو عبدى ".

وهنا نرى القلوب وقد أعماها التعصب .

---

(١) امتاع الاسماع للمقريزى ص٣٢ ومثل هذا تكرر عند ما اذن بلال فوق الكعبة عند فتح مكة انظر نفس المصدر ص٢٩٠ / تاريخ الطبرى .

الحادثة الثالثة :

أرسل كسرى أبرويز الى النعمان يخطب ابنته فرفض النعمان واظهر للرسول الموفد ان العرب تستنكف أن تزوج العجم [(١)]

هذه الحوادث وأمثالها تدل على تأصل عوامل الفرقة بين الشعوب بسبب الجنس والطبقة وبعد الطبقات والأجناس دخلت الحدود الاقليمية كعامل فرقة بين ابناء الجنس البشرى حيث تدخلت العصبية الاقليمية والقومية الضيقة مع أن الحدود الجغرافية لم تكن - فى كثير من الاحيان - الا خطا وهميا ليس فيه اى دليل على أن الذين يقطنون على جانبه الايمن بينهم وبين الذى يقطنون على جانبه الايسر اى فرقة .

بل فى كثير من الاحيان نجد ان القرابة تربط القاطنين على جانبى الحد الفاصل بين الدولتين .

ومع كل هذا نرى القومية الضيقة التى بنيت على خطوط وهمية عاملا من عوامل اشعال الحروب بين المتجاورين تلك الحروب التى تقوم فى اول الامر لاسباب من اهمها محاولة احد الطرفين الاستيلاء على الخير الذى فى يد الآخر أو انتزاع جزء من بلد هذا لينضم الى بلد ذاك .

وقد تكون الحرب بسبب شخصى بين رئيسى البلدين . وتسيل الدماء وتتعمق العداوة فى النفوس وكثيرا ماينسى السبب الأصلى لقيام الحرب ولم يعد يذكر الا الثأر.

---

(١) الشعوبية واثرها الاجتماعى والسياسى زاهية قدوره ص٠ ٣٠

وبذلك عم الشقاء الانسانية لاسباب ليس لها وجود الا فى الوهم

والله رحيم بعباده وكان من رحمته أن ارسل محمدا صلى الله عليه وسلم

ليخفف من آلام الانسانية وليزيل شقاءها .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليقضى على كل نزعات القومية والشعوبية .

الاسلام والوحدة الانسانية

الاسلام هو دين الله الذى ارتضاه لعباده " ورضيت لكم الاسلام دينا" وأول ركن فى الاسلام هو التوحيد . والتوحيد فى الاسلام هو التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك . الله وحده هو الخالق وهو وحده المستحق للعبادة ليس هناك من يشاركه فى الخلق وليس هناك من يشاركه فى استحقاق العبادة وليس هناك من يستحق أى لون من الوان التعظيم غيره سبحانه يقول تعالى" ياايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون " (البقرة : ٢١-٢٢) .

والند بكسر النون وتشديد الدال وهو نظير الشيء الذى يعارضه فى اموره .

وروى البخارى عن عبد الله قال " سألت النبى صلى الله عليه وسلم أى الذنب اعظم عند الله ؟ قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك ..) .

فالقرآن الكريم هنا يأتينا بأن كل شيء من الله خلق الانسان والارض التى نسير عليها ومنها معاشنا .

وكل مدع بعد ذلك فضلا على أخيه انما هو واهم نسى مبدأه ومعـــاده

والحديث الشريف ينبه الخلق الى ذلك ببيان نهايتهم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم - كما رواه البخارى عن ابى هريرة - يقبض الله الارض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : انا الملك اين ملوك الارض ؟ " .

وفى حديث الاستخارة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مخاطبا ربه " .. فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وانت علام الغيوب " .[١]

وبذلك يصل المسلم الى أن كل شيء بيد الله .

وبعد التوحيد الخالص ينتقل الاسلام بالمسلم ليعلمه أمرا آخر وهـــو وحدة الاب .

الناس جميعا لاب واحد هو آدم .

قال تعالى " خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها " (الزمر : ٦)

وعلى ذلك اصبح لا فضل لاحد على احد من ناحية الاصل .

الله هو الخالق للكل وآدم هو الاب للجميع .

وعندما ينظر الانسان الى نفسه لايجد لنفسه أى عمل فيما هو عليه مـــن خلقه فان أصل الخلقة من الله " الذى خلقكم والذين من قبلكم " وكذلك تفاصيل الخلقة هى ايضا من الله " يا ايها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقـــك فسواك فعدلك " بالتخفيف يعنى فى اى صورة شاء اما حسن واما قبيح او طويل او قصير .. من العدل وهو الصرف الى اى صفة اراد " .[٢]

---

(١) فتح البارى جزء ١٣ ص ٣٧٥

(٢) نفسه جزء ٨ ص ٦٩٥

وبذلك صار الاختلاف بين الخلق فى الالوان والالسنة دليل قدرة الله تعالى وآية من آياته قال تعالى : " ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين " (الروم : ٢٢) .

وفى ختم الاية يقول تعالى ان فى ذلك لايات للعالمين " بكسر اللام اشارة الى ان العلماء هم الذين يفهمون عظمة الله سبحانه اذ كيف يكون هذا الاختلاف مع ان الناس كلهم من آدم .

وكون الاختلاف بين المخلوقات دليلا على عظمة الله سبحانه وان العلماء هم الذين يدركون هذا بينه الله سبحانه فى مكان آخر قال تعالى " الم تر أن الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور (فاطر : ٢٧-٢٨) .

واذا فان الذين يرون فى اختلاف الالوان والالسنة دليلا لا على عظمة الله بل على ارتقاء البعض وانحطاط البعض الآخر الذين يرون هذا ليسوا من العلماء بل من الجاهلين .

ويكون جهلهم أتم حين يحملون الانسان وزر لونه فيضعونه فى درجة اجتماعية معينة بسبب هذا اللون او الجنس او المكان الذى نشأ فيه الانسان .

ان الانسان يؤزر او يؤجر على عمل قام به وكان له فيه اختيار وأى اختيار للانسان فى لونه او مشيه او لغته او مكانه .

وبذلك جاء الاسلام - وهو دين الله لخلق الله - ليبطل كل تلك النزعات التى ترجع الى الجنس او اللون او المكان او اللغة وليعلن الاخوة الكاملة بين بنى البشر .

واذا كان هناك فوارق فان الاسلام يرجعها الى ما للانسان فيه عمل واختيار وهو التقوى والعمل الصالح .

قال تعالى :

(يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) " الحجرات : ١٣) .

وقد اخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يرسى هذه القواعد فالقول يتبعه العمل .

اخرج ابن ابى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وابن المنذر وابن ابى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمر ان النبى صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على ايدى الرجال فخطبهم فحمد الله واثنى عليه وقال الحمد لله الذى اذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها بآبائها .

الناس رجلان بر تقى كريم على الله وفاجر شقى هين على الله .

والناس بنوا آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله :

" يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير " ثم قال : اقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

واخرج ابن مردويه والبيهقى عن جابر بن عبد الله قال :

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وسط ايام التشريق خطبة الوداع (١) فقال يا ايها الناس الا ان ربكم واحد الا ان آباكم واحد آلا لافضل

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع خطب اكثر من خطبة جاء فى امتاع الاسماع للمقريزى ص ٥٢٩ انه خطب ثلاث خطب ثم روى عن المحب الطبرى انها خمس خطب .

لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لاسود على احمر ولا لاحمر على اسود الا بالتقوى ان اكرمكم عند الله اتقاكم . الا هل بلغت ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

واخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : ان الله يقول يوم القيامه امرتكم فضيعتم ماعهدت اليكم ورفعتم انسابكم فاليوم ارفع نسبى واضع انسابكم اين المتقون ؟ اين المتقون ؟ ان اكرمكم عند الله اتقاكم .

واخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله يوم القيامة : ايها الناس انى جعلت نسبا وجعلتم نسبا . فجعلت اكرمكم عند الله اتقاكم فأبيتم الا ان تقولوا فلان اكرم من فلان وفلان اكرم من فلان وانى اليوم ارفع نسبى واضع نسبكم الا ان اوليائى المتقون .

وأخرج البزار عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل بنى آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم او ليكونن أهون على الله من الجعلان وأخرج احمد عن ابى ريحانه رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من انتسب الى تسعة اباء كفار يريد بهم عزا وكبرا فهو عاشرهم فى النار .

واخرج البخارى فى الادب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ماتعدون الكرم وقد بين الله الكرم واكرمكم عند الله اتقاكم وماتعدون الحسب ؟ أفضلكم حسبا أحسنكم خلقا .

وروى مسلم عن سعد بن ابى وقاص قال :

كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لايجترئون علينا قال وكنت انا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست اسميهما فوقع فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم ماشاء الله ان يقع فحدث نفسه فانزل الله " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه " (الانعام : ٥٢) .

بهذا وأمثاله وضع الاسلام اسس المساواة بين الناس ونفى عنهم كل ماهو من الجاهلية من التفاخر بالآباء او باللون او بأى شيء غير العمل الصالح ومن كان عمله صالحا لن يفاخر ولن يعير غيره لانه - مهما كان عمله - على خوف هل يقبل عمله او لا .

على هذا ربى الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه كما اراد من المسلمين جميعا ان يكونوا كذلك . والصحابة رضوان الله عليهم قد انتقلوا بهذه التربية من حال الى حال فقد رأينا الملاء من قريش لايرضون ان يجلسوا فى مكان واحد مع من ظنوهم أدنى درجة منهم .

اما بعد الاسلام فاننا نرى عمر بن الخطاب يعبر عن بلال بالسيد .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال :

كان عمر يقول : ابو بكر سيدنا واعتق سيدنا يعنى بلالا .

وروى البخارى ايضا عن ابن عمر قال : " لما قدم المهاجرون الاولون العصبة - موضع بقباء - قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يؤمهم سالم مولى ابى حذيفة وكان اكثرهم قرآنا فقبل الاسلام ماكان يرضى اكثر هؤلاء المأمومين أن يجلسوا مع هذا الامام .

و بعد الاسلام تغير كل شيء فصاروا يأتمون به مادام اقرأهم للقرآن ولا التفات لشيء بعد ذلك من مفاخر الجاهلية .

اصبحوا لايذكرون انسابهم ولا موطنهم الاصلي لان نسبهم هو الاسلام والارض كلها وطنهم واذا ذكروا الانساب فانما يذكرونه لهدف سام .

اخرج الترمذى عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة فى الاهل مثراة فى المال نسأة فى الاثر

ولنفرض أن رحالة مر بمكة قبل البعثة المحمدية ورأى المجتمع المكى اين يجلس عمر ومن هو من طبقته واين يجلس بلال ومن هو من طبقته ثم غاب هذا الرحالة مدة مر فيها باقطار الارض وعند وجوعه مر بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى انتقل اليها جل هذا المجتمع المكى بعد الهجرة ورأى الرحالة ما صار اليه حال الناس فى المدينة المنورة . يقينا ان هذا الرحالة لن يصدق عينيه اول الامر .

لقد تغير المجتمع ليس من الظاهر بل من الداخل وماهذه الصورة الظاهرة الا نتيجة لعقيدة دينية سيطرت على النفس البشرية فطهرتها من كل أدران الجاهلية .

لم يعد هناك فرق بين عمر القرشى وبلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى وعبادة بن الصامت الخزرجى واسيد بن حضير الاوسى لم تعد هناك فوارق بسبب النسب وانما اصبح المجتمع المسلم الذى لاتفرقة فيه بسبب اللون او الجنس او الوطن .

هذا هو المجتمع المسلم الجديد .

واخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يتعهد هذا المجتمع الجديد فطرأ شيطانا يريد ان ينفث فيه سمومه الا وخيب عليه تدبيره .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال :

كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار قال الانصارى يا للانصار وقال المهاجرى يا للمهاجرين .

فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما بال دعوى جاهلية قالوا يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار فقال دعوها فانها منتنة " .

وما كان بين الاوس والخزرج قبل الاسلام معروف وجاء الاسلام ليزيل ما فعلته الجاهلية واصبح الاوس والخزرج اخوة فى الاسلام .

وكانت هذه الحادثة . مرشاس بن قيس اليهودى - وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الانصار من الاوس والخزرج فى مجلس لهم يتحدثون ورأى اجتماعهم والألفة التى اصبحت بينهم بعد ان كانوا اعداء امتلاء بالغيظ وعرف انه لا يمكن ان ينتصر عليهم بحرب مادامو موءتلفين لابد اذا من عمل لفض اجتماعهم .

فأرسل شابا من اليهود وامره ان يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ماقيل فيه من الاشعار .

وأدى الشاب اليهودى مهمته كما كلف بها وعند ذلك ثارت فى القوم الحمية الجاهلية ونادوا السلاح السلاح . وكادت المعركة تنشب بين الفريقين .

وعلم النبى صلى الله عليه وسلم بالامر فخرج مسرعا ومعه ناس من المهاجرين والانصار حتى وصل اليهم وناداهم قائلا ابدعوى الجاهلية وانا بين

اظهركم ؟ بعد اذ هداكم الله الى الاسلام واكرمكم به وقطع به عنكم امر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر والف بينكم ترجعون الى ماكنتم عليه كفارا ..

فعرف القوم انها كانت نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فالقـــــوا السلاح وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم .

ونزل قوله تعالى :

" ياايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكـم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسولــه ومــن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (آل عمران : ١٠٠ - ١٠١) .

هنا نجد ان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعهد الغرس الاسلامـــى فلايترك الافات تؤذيه .

واذا كان للجاهلية نظرة خاصة بالنسبة للعلاقة بين الناس فى حياتهم اليومية من كلام وجلوس ومشاورة ... الخ .. حيث تحدد منازل للناس لايمكــن تخطيها . اذا كان لهم هذه النظرة فى هذه الامور فان مايتعلق بالـــزواج يكون اشد قسوة حيث تتعمق الفوارق .

ومن هنا فان الاسلام ركز على تقريب الفوارق فى هذه النقطة .

قالت عائشة رضى الله عنها : " ان ابا حذيفة بن عتبه بن ربيعه تبـنى سالما وأنكحه ابنة اخيه هند ابنة الوليد بن عتبة وهو مولى لامرأة من الانصـــار " اخرجه البخارى " وامر النبى صلى الله عليه وسلم فاطمه بنت قيس ان تنكح أسامه ابن زيد مولاه فنكحها بأمره " متفق عليه .

وزوج أبـــاه زيد بن حارثة ابنة عمته زينب بنت جحش الأسديــــــه (١)

وجاء في سند البيهقي " امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضه ا ن يزوجـــوا أبا هند أمرأة منهم فقالوا يارسول الله : أتزوج بناتنا موالينا ؟

فأنزل الله : " ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى " الآية

وتأتي شعب الايمان كلها من شهادة الا اله الا الله الى اماطـــــة الأذى عن الطريق وكأنها تحرس هذا المعنى .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون اوبضع وستو ن شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق والحيـــــاء شعبة من الايمان .(٢)

ولـــنأخذ الآن بعض هذه الشعب لنحاول ان ندرك بعض مافيها من حكم واولها شهادة الا اله الا الله .

ان الانسان الذى يشهد لله بالوحدانية شهادة خرجـــــت مـــن قلب مؤمن بالله سيدرك حتما ان الناس جميعا فقراء الى ربهم وان الله هـــــو الغنى الحميد .

اذ لا يصح لغنى ان يفخر بشئ وكيف يفخر من يؤمن بانه عبد الله وراجع الى الله .

---

(١) عن المغنى لابن قدامة ص ٤٨٠ جـ٦

(٢) عن كتاب الايمان لابن منده ورواية البخارى الايمان بضع وستون شعبـــــة والحياء شعبة من الايمان .

والصلاة يقف فيها الكل متجاورين خاضعين لرب هو وحده المعبود بحق ويسجدون جميعا على ارض واحده يفتتحون صلاتهم بالتكبير " الله اكبر " الله وحده لا اله غيره ويختمون صلاتهم بالتسليم السلام عليكم .

وبذلك ينتشر السلام فى هذا المجتمع لا الفخر لان كل واحد فى هذا المجتمع حريص على مايجعل الله يحبه خائف من كل مايجعل الله يبغضه والله سبحانه هو القائل "... ان الله لايحب كل مختال فخور " (لقمان : ١٨) .

والزكاة تجعل المال عامل جمع لا عامل تحاسد وتباغض لقد اذهبت الزكاة الغرور بالمال من الغنى كما اذهبت الحقد عن الفقير .

والصوم يصل بصاحبه الى التقوى وفى التقوى معنى الخوف من الله . وهل الخائف من ربه يعصيه .

ويأتى الحج الذى يجتمع فيه المسلمون من مشارق الارض ومغاربها فى وقت واحد فى مكان واحد بلباس واحد .

ويبقى الحاج مع اخوانه يتعرف عليهم ويدرك الوحدة الحقيقية التى تربطه باخيه مهما تباعدت الاوطان واختلفت الالسنة والالوان .

لقد ادرك غير المسلمين مايوءديه الحج من الوحدة بين المسلمين ونأخذ هنا شهادة احدهم وهو " جب" حيث يرى ان الحج اعظم فروض الاسلام تأثيرا فى تغذية روح الوحدة الاسلامية " ولايمكن لمسلم اخذت روحه حظا فى تعظيم عبادة يشارك فيها عشرات الالوف[1] من اخوانه الموءمنين من كل جنس

---

(١) اصبح الحج الان يشارك فيه اكثر من مليونين

وطائفــة (فض مكه ـ كما يقول ـ تهدأ أشد العداوات الطائفية حدة وان بدى تعصب أحيانا) أن ينسى تلك اللذة العليا التى ذاتها ومايميطعنه اللثام من قوة باطنة لدينه ومن انتشاره العظيم فى الافاق .

وكل من رجع من الحج يشهد لدى جماعته بالوحدة العامة التى تترفع على القوميات الصغيرة ويصير مركزا تشع منه حماسة دينية لمثل الاسلام العليــا التى تسمو على القومية(١) هذا هو الحج يبرز الامة الاسلامية مرتبطة بربــاط الدين لايفرق بينها قوميات ولا عصبيات ولا اجناس ولا لغات .

ويكفى انك ترى هذا الجمع الكبير وليس فيه اثنان يتشاحنان برغم ازدحام الطرق وشدة الحر واختلاف الامزجة .

واذا حصل شيء من هذا ـ ومن النادر ان يحصل ـ فانك ترى الجميـع ينظرون اليه على انه أمر شاذ يجب ان يزول بسرعة وفعلا يزول وبسرعة .

فاذا ما انتقلنا من الحج الى بقية شعب الايمان(٢) فسنجــد مـن الشعب التى تخص القلب الرحمة التواضع ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغــير وترك الكبر والعجب وترك الحسد وترك الحقد وترك الغضب .

---

(١) وجهة الاسلام ص ٧٢

(٢) يذهب بن حجر موافقا ابن حبان ـ الى ان هذه الشعب تتفرع عن اعمــا ل القلب واعمال اللســان واعمال البدن ثم يضع تحت كل واحدة من هــــذه مجموعة من شعب الايمان .

كما نجد من الشعب التى تختص باللسان ... الاستغفار واجتناب اللهو كما ان من الشعب التى تدخل تحت اعمال البدن الجود ويدخل فيه اطعام الطعام واكرام الضيف وطاعة السادة والرفق بالعبيد والاصلاح بين الناس والمعاونة على البر ويدخل فيه الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكف الاذى عن الناس واجتناب اللهو واماطة الاذى عن الطريق .

كل هذه الامور هى من شعب الايمان .

فعند ما يرعى المسلم شعب الايمان - وكل مسلم يسعى ان يكون ايمانه كاملا - لن يخطر بباله لون من الوان التفرقة بسبب اللون او الجنس او اللغة ..

ويبقى العمل الصالح هو الذى يرتفع بصاحبه .

وهذه هى النتيجة المنتظرة من مسلم يؤمن بآله واحد للعالمين وبعموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

" فالدعوة المحمدية قد قامت اذا على رسالة للناس كافة لعبادة الله وحده وليكون الناس أمة واحدة والاخوة فيها اخوة العقيدة لا تفرق بين الشعوب والقبائل والابيض والاسود والاصفر ولا الغالب والمغلوب ولا الاراضى والاوطان بل تدعو الى اخوة حدودها البشرية تحرم الاعتداء وتدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة حتى فى حالة النزاع مع المعتدين وردهم عن عدوانهم بالحرب فان فكرة الاخوة البشرية تتخذ ايضا نبراسا يهتدى به المؤمنون فى ظلام الحرب فهم لا يحاربون للفتح ولا للسلب ولا للقهر واذلال الناس وانما لحرية العقيدة " لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى " .

" وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله" . حتى فى حالة الحرب مع الوثنيين يعتبر الاسلام الاخوة اصلا فى النزاع فالمؤمن الذى يعتقد ان الوثنية

هى أسوأ مايصاب به الانسان فى روحه وعقله ومصيره انما يريد للوثنى ان ينجـو مما هو فيه وماهو معرض له من غضب الله .

فاذا قسا عليه ليرده عن كفره فانما يريد بذلك رحمته وهو معترف باخوته كما قيل .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما * فليقس احيانا على من يرحـم

وهذا الوثنى الذى يحاربه المؤمن متى كان معتديا يستحق من المؤمن جميع الحقوق بمجرد تسليمه لله ويصبح مساويا له تمام المساواة .

فهو اذا لاينازعه لنكران اخوته او لعدم الرغبة فى رحمته بل لتمام هـذه الرحمة او هذه الاخوة .(1)

هذا هو واقع الاسلام فى نظرته للبشرية .

ونختم هذه الفقرة بشهادتين :

الاولـى لمسلم فى عهد النبوة عاصر الجاهلية والاسلام وعرف الفرق بينهما لانه عاش الحياتين وهو جعفر بن ابى طالب .

والثانيـة لمسيحى فى العصر الحديث عاش حياة غير اسلامية ودرس الاسلام وحاول ان يكون منصفا فى شهادته وهو جوستاف لوبون .

فاما جعفر بن ابى طالب فقد تكلم امام النجاشى - نيابة عن المهاجرين الى الحبشة وردا على ما اثاره وفد قريش - فقال :

" ايها الملـك كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتـى الفواحش ونقطع الارحام ونسىء الجوار ويأكل منا القوى الضعيف فكنا على ذلـك

---

(1) الرسالة الخالده عبد الرحمن عزام ص ٥٣ و ٥٤

حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن واباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات. .الخ .

هنا نجد جعفر بن ابى طالب يبرز نقطا من مزايا الاسلام فيها توحيد الله وعدم اعتداء القوى على الضعيف والرحمة التى تعم الجميع وعدم الاساءة الى الجار والاحسان اليه دون نظر الى نسبه او حسبه .

واما الشهادة الثانية وهى التى كانت من جوستاف لوبون) فانه يقول :

" وتجمع بين مختلف الشعوب التى اتخذت القرآن دستورا لها وحدة اللغة والصلات التى يسفر عنها مجئ الحجيج الى مكة من جميع بلاد العالم الاسلامى وتجب على جميع اتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الامكان .

واللغة العربية هى لذلك اكثر لغات العالم انتشارا على مايحتمل .

وعلى مابين الشعوب الاسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير مايمكن جمعها به تحت علم واحد فى احد الايام" .(١)

وهناك مسيحى آخر هو القسيس ويتبرخت " قد بين فضل الاسلام فى ازالة الحواجز بين الشعوب حيث يقول فى تقريره امام موءتمر التبشير الذى انعقد فى الكنوغو سنة ١٩١١ " ولنتذكر ايضا انه وان يكن الاسلام بقى دين

---

(١) حضارة العرب ص ١٢٦

الشعوب التى هى دوننا فى المدنية فان انصاره نجحوا اكثر من المسحيين بازالة الحواجز التى تفصل بين الاجناس ."[1]

والواقع الذى أسسه الاسلام هو الدليل ولايحتاج الى شهادة احد فنجد المسلمين فى اهم مسألة وهى مسألة الحكم اصبحوا بفضل الاسلام لايتساءلون عن عنصر واصل وانما يتساءلون عن خلق ودين .

فممن المماليك الذين وصلوا الى أعلى مناصب الدولة فى مصر والبلاد الاسلامية نجد الارمنى والروسى والصقلى والكرجى والشركسى والتترى والتركى والفرنجى والسودانى والحبشى .

ولو تعقبنا انسابهم لانكشفت لنا عن جميع الوان البشر . فلم تكن الوطنية بمعناها الحديث ولا القومية بعصبيتها الحاضرة حدا فاصلا بين الناس كما صارت فى العصور الاخيرة[2] هؤلاء هم المسلمون أزالوا فوارق الجنس والارض وغيرها واستظلوا بوحدة العقيدة فنجحوا وقادوا العالم الى طريق النور.

وهم فى مسيرتهم كانوا ينصتون الى قوله تعالى :

" واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين " (الانفال : ٤٦) .

ولو بقى المسلمون على وحدتهم لما استطاع عدوهم ان ينال منهم ولكن الواقع انهم فى كثير من فترات التاريخ كان كثير منهم ينصت للشيطان .

---

(١) الغارة على العالم الاسلامى ص ٧٢

(٢) الرسالة الخالده عبد الرحمن عزام ص ٢٠٢

رجوع النزعات القومية والشعوبية من جديد الى المسلمين

-

أدرك المسلمون أن وحدتهم سر قوتهم فتمسكوا بها ..

وأدرك العدو هذا فعمل على القضاء على هذه الوحدة .

والعدو لم يخف قصده بل صرح به فى أكثر الاحيان وان كان أخفاه فى أحيان أخرى .

والعدو قد تختلف أسماؤه باختلاف العصور ولكنه هوهوفقد يطلق عليه اسم المنافق او الباطنى او الالحادى وقد يطلق عليها سم من هذه الاسماء او مايشبهها ولكن المضمون واحد وهو أنه عدو وسعيه مستمر للوقيعة بين المسلمين وردهم الى الجاهلية الاولى وكان المسلمون يفسدون على العدو تدبيره فى بعض المرات ويقعون فيما دبر لهم من مكيدة مرات اخرى ..

وقد تقدم لنا ماكان من " شاس بن قيس" اليهودى وتدارك الرسول صلى الله عليه وسلم للامر ومن المرات التى تنبه فيها المسلمون ماجاء على لسان كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك هو وصاحباه ونهى رسول اللهصلى الله عليه وسلم الناس عن كلامهم يقول كعب .

فبينا انا أمشى بسوق المدينة اذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول :

من يدل على كعب بن مالك ؟

فطفق الناس يشيرون له حتى اذا جائنى دفع الى كتابا من ملك غسان فاذا فيه اما بعد فانه قد بلغنى ان صاحبك قد جفاك ولميجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك .

فقلت لما قرأتها وهذا ايضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها

" رواه البخارى ".

هنا نجد مسلما صادق الاسلام ولم يرضى ان يسمع العدو برغم الشدة التى هو فيها وما كان يدرى متى الفرج . وهو يعيش فى مجتمع يقاطعه بكل انواع المقاطعة وطال به الوقت وكان فى حال وصفها الله تعالى بقوله " حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم " ولكنهم مع هذا لم يفقدوا ايمانهم بالله بل عند ما انقطع املهم من المخلوق بقى يقينهم فى الخالق " وظنوا الا ملجأ من الله الا اليه" .

ان الذين وصل بهم اليقين الى هذه الدرجة لايمكن ان ينال منهم عدو ولكن هل كان المسلمون دائما مثل كعب ابن مالك وصاحبيه ؟ الواقع لا .

ولذلك استطاع العدو ان يدخل بينهم . ووجدنا العصبية تعود من جديد بين المسلمين ووقع ماحذر الرسول صلى الله عليه وسلم منه فكان بين القبائل العربية فى الاسلام مايشبه ولو من بعض الوجوه ماكان فى الجاهلية .

يقول المسعودى " وافتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بما له من المناقب وتحزبت الناس وثارت العصبية فى البدو والحضر"(١)

تم نحو هذا بين العرب والعجم ونجد اشخاصا مشهورين بالشعوبية مثل بشار بن برد .

واذا كان كعب بن مالك " يرمى برسالة ملك غسان فى التنور ويجد أن ظن ملك غسان فيه انه سيجيبه . هذا الظن من البلاء الذى نزل بكعب - كمايقول-

---

(١) نقلا عن ضحى الاسلام ص ٢٢ جـ١

اذا كان هذا من كعب بن مالك فاننا نجد ان النفوس قد تغيرت ليذهب بعض المسلمين للتعاون مع الصليبيين[١] ويتم أكتشاف جماعة من الباطنية عند خيمة صلاح الدين فى جوف معسكره يريدون الفتك به فيقرر قتلهم ![٢]

ولم تكن معركة الشعوبية سرية بل صارت علنية ووجدنا من يؤلف فيها الكتب خذ مثلا على ذلك " علان " الشعوبى يقول عنه ابن النديم " وهو علان الشعوبى أصله من الفرس وكان رواية عارفا بالانساب والمثالب والمنافرات منقطعا الى البرامكة وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة .

عمل كتاب الميدان فى المثالب الذى هتك العرب وأظهر مثالبها وكان قد عمل كتابا لم يتمه سماه الحلية انقرض أثره كذا قرأت بخط ابن شاهن الاخبارى له من الكتب كتاب المثالب ويحتوى على مثالب قريش : صناعات قريش وتجاراتها مثالب تيم بن مره بن كعب مثالب بنى أسد بن عبد العزى مثالب بنى مخزوم ابن يقظة بن مرة بن كعب . . . " الى آخر ماذكره ابن النديم واذا كانت العقيدة الاسلامية هى التى قضت على الشعوبية والعنصرية فاننا نجد أنه كلما ضعفت العقيدة كان انتشار هذا الوباء بين المسلمين وكثرت الحركات الشعوبية وتحركت فى النفوس أنواع من الجاهلية القديمة والامثلة على ذلك كثيرة يطول ذكرها .

---

(١) انظر الفتاوى ص ١٣٨ جـ ٣٥

(٢) ارجع الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٩٤٩ جـ ٢ تأليف ستيفن

ولنضرب لذلك مثلا بالراونديه " الذين (كانوا) يعملون على تحويل الخلافة الى ملك كسرى كما كان ينظر اليهم باعتبارهم زنادقة يرون أن تعود المجوسية او شكل من أشكالها كالزرادشتيه او المانوية او الممزدكية او غيرها.[١]

وكان من مبادئ الخرمية الاساسية تحويل الملك من العرب المسلمين الى الفرس والمجوس وهم بذلك قد اثاروا حربا شعواء على الاسلام والعرب.[٢]
واخذت العادات الجاهلية تسيطر على النفوس من جديد فقد " زاد النفوذ الفارسي في الدولة العباسية حتى شمل كل مظاهر الحياة في العصر العباسي وبلغ الذروة في عهد هارون الرشيد . وفي بغداد اخذ الميل للازياء الفارسية ينمو ويطر واحتفل بالاعياد والفارسية القديمه وخاصة بالنيروز والمهرجان والرام.

واتخذ رجال البلاط العباسي العادات الفارسية القديمه .[٣]

وكان أكاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنيروز في أول العام وفي اخره بالمهرجان ويسمونه " روز مهر" ومعناه محبة الروح وكان من اكبر اعيادهم فقد اثر عن سلمان الفارسي انه قال :" كنا على عهد الفرس نقول : انه الله اخرج زينة لعباده من الياقوت في النوروز ومن الزبرجد في المهرجان ففضلهما على غيرهما من الايام كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر" وكان الفرس يتخذون المهرجان " دليلا على نهاية العام والنوروز دليلا على بدايته ويوافق اول عيد المهرجان اول الشتاء .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي حسن ابراهيم حسن ص١٠٥ ج٢

(٢) نفسه ص ١٠٩

(٣) نفسه ص٤٣٤

ومن اصحاب العادات الجاهلية ماذكره الطبرى فى تاريخه عن محاكمة الافشين أنه كان يسمح للناس عند الكتابة اليه ان يكتبوا ما معناه الى الاله من عبده فلان بن فلان ولما سأله محمد بن عبد الملك الزيات فى ذلك قائلا والمسلمون يحتملون ان يقال لهم هذا فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه: أنا ربكم الاعلى ؟

قال : كانت هذه عادة القوم لابى وجدى ولى قبل أن أدخل الاسلام فكرهت أن اضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم.(١)

فنجده هنا يفضل ماكان من ميراث قومه على ماجاء به الاسلام اين هذا من عمر بن الخطاب الذى يقول - وهو القرشى - " أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا يعنى بلالا .

ويبدو أن التعصب اصبح عدوى تنتقل من مجال الى مجال حتى أصاب المنتسبين الى الدين باسم الدين - كما يزعمون (- فوجدنا التعصب للمذهب حتى اخرج بعض اصحاب المذاهب مخالفيهم من الاسلام .

فقد بلغ من ايذاء بعض المتعصبين لبعض فى طرابلس الشام فى آخر القرن الماضى أن ذهب بعض شيوخ الشافعية الى المفتى وهو رئيس العلماء وقال له : قسم المساجد بيننا وبين الحنفية فان فلانا من فقائهم يعدنا كأهل الذمة بما اذاع فى هذه الايام من خلافهم فى تزوج الرجل الحنفى بالمرأة الشافعية .

---

(١) عن نفس المصدر ص ٥٩ ٤

وقول بعضهم : لايصح لانها تشك فى ايمانها يعنى ان الشافعية وغيرهم
من الأشعرية يجوزون ان يقول المسلم : أنا مؤمن ان شاء الله وقول آخرين بل
يصح نكاحها قياسا على الذمية .[١]

---

(١) عن المقدمة التى كتبها شكيب أرسلان لكتاب المغنى لابن قدامه ص١٨

الشعوبية والقومية فى العصر الحديــــث

عداوة أوربا للاسلام وتفنن أوروبا فى الكيد للاسلام والمسلمين هذه كلها امور لاشك فيها واوروبا تمتاز بانها لاتنسى ابدا بل هى دائما تحاول الانتفاع بكل مايصادفها اثناء سيرتها فى الحياة فاذا ماصادفت عقبة فى مرة من المرات فانها تحاول بكل جهدها ان تقضى عليها او تتجنبها فى المرات الآتية .

وكان هذا هو الاجدر بالمسلم لان الرسول صلى الله عليه وسلم يقـــول " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

فكان على المؤمن ان يعلم عاقبة التفرق ويقرأ التاريخ ليزداد معرفـــة ولكن الواقع أن العدو يستفيد من دروس التاريخ اكثر منا .

لقد التقى الصليبيون بالمسلمين فى الحروب الصليبية وكانت النتيجـــة هزيمة اوربا الصليبيـــة امام المسلمين .

ولاشك أن اوروبا بدأت تستعيد الذكريات : فى الماضى دولة اوربيـــة واحدة هى اليونان بقيادة الاسكندر هزمت الشرق كله .

ومن قبل الاسكندر ومن بعد الاسكندر تعودت اوروبا ان تنتصر حـــتى الروم التى انهزمت امام الفرس اوائل زمن البعثة المحمدية - استعادت قوتهـــا لتنتصر من جديد على الفرس .

اوروبا هذه مجتمعة تنهزم امام الشرق المسلم بعد ان حاولت خـــلال مائتى عام ان تثبت اقدامها فى الشرق فى بلاد الاسلام .

لقد ضاعت غطرسة الرجل الاوربى واضطر ان يعترف بان المسلم لايترك ثأره بل لابد ان يسترد كرامته ان قدر وهزم فى بعض المرات .

يقول مؤرخ صليبى عن صلاح الدين وانتصاراته .

وسواء أكانت انتصاراته ترجع الى رد الفعل الحتمى عند المسلمين على تحدى الفرنج الدخلاء ام ترجع الى ما اشتهر به كبار الزعماء الذين سبقوه من سياسية بعيدة النظر ام ترجع الى ماوقع بين الفرنج انفسهم من منازعات وحماقات ام ترجع الى شخصيته . فانه اثبت بالدليل القاطع مالدى الشرق من قوة وروح .

ففى وقعة " قرون حطين " وعلى ابواب بيت المقدس انتقم صلاح الدين لما حدث فى الحرب الصليبية الاولى من المهانة والاذلال .

واثبت كيف يحتفل الرجل الشريف بانتصاره[1] اذا كان هذا هواعترا ف اوروبا واذا كانت اوروبا تستعيد الذكريات لتنتفع بها وتاخذ من التاريخ عبرة اذا كان هذا هكذا فان اوروبا بدأت تدرس اسباب هزيمتها وانتصار المسلمين .

وكان من هذه الاسباب التى توصلت اليها اوروبا سبب يهمنا هنا وهو اتحاد المسلمين وتفرق اوربا او بمعنى آخر انصهار المسلمين فى وحدة اسلامية وتفرق اوربا بحسب القوميات و" يورجيه " الذى يذكر هذا السبب يعدد الاجناس التى كان يتكون منها جيش الصليبيين ثم يقول مقارنا بين حالها وحال الجيش الاسلامى : " كيف يمكن ان يتم النصر لهذا الخليط العجيب على الشعوب الاسلامية التى كانت تتكون وتتكتل فى مجموعة قوية الايمان والانسجام وغنية بما لها ورجالها وحضارتها "[2]

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٦٤ و ٦٥ جـ ٢

(٢) عن كتاب الديانات والحضارات طه الهدور بيروت ١٩٥٦ ص ٤٣

اوربا خليط مفكك والمسلمون تجتمع لهم اسباب القوة قوة الايمان والانسجام الفنى بالمال والرجال والحضارة . هذه واحده . والثانية ان اوربا بعد الحروب الصليبية اصطلت بنار الحروب التى قامت بين دولها من اجل القوميات " وقد مر قرنان على الاقل على اوربا وقد غرقت فى دماء حروبها لتعديل الحدود وتحرير الاقليات بين الفرنسيين والالمان وبين هؤلاء والنمساويين وبين هؤلاء وهؤلاء والصقالبه وبين النمسا وايطاليا وبين البلقانيين وبينهم وبين الدولة العثمانية وبين روسيا وجيرانها من الغرب او الشرق او الجنوب وبين التشيك والبولنديين والمجر والرومانيين .

وهكذا نجد النزاع على مايسمى الوطن وحدوده قائما لا يستقر بل يتزايد على مدى الايام وعلى قدر الحدة فى العنصرية والوطنية .(١)

اذا اوروبا اصطلت بنار القوميات مرات من اهمها مرتان الاولى حين كانت السبب فى هزيمتها امام المسلمين الثانية حين كانت السبب فى حروب استمرت اكثر من قرنين بين دول اوربا واغرقت اوربا فى دماء ماكانت تسيل لولا داء القوميات .

عرف العدو كل هذه الدروس واستوعبها وفكر ووضع خطته ليرمي المسلمين بهذا الداء الذى ماأصاب أمة الا وقتلها وهو داء التفرق واقرب طريق اليه هو احياء القوميات والعداوات القديمة . والعدو لم يضيع وقته بل بدأ مباشرة فى التنفيذ ومن العجيب انه صرح بقصده فى اكثر من مناسبة . ولكن يبدو ان العالم الاسلامى فى ذلك الوقت كان مهيأ لقبول اى شيء فالجسم متى ضعف اصبح قابلا لتأثير كل مكروب .

(١) الرسالة الخالده عبد الرحمن عزام

واليــــك خطط العدو وتصريحاته لتفريق المسلمين واحياء القوميات يقول " جود فروى -×- ومونيين " عن عمل فرنسا فى المغرب فيما يخص التعليــــم " من الخطر ان نترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون ولغتها واحدة وانظمتهـــا واحدة . لابد ان نستعمل -لفائدتنا- العبارة القديمة " فرق تسد " ان وجود العنصر البربرى هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربى ويمكننا ان نستخدمه ضـد المحزن (الحكومة) نفسه " ولكى يعمقوا الفروق بين البربر والعرب حاولــو ان يقضوا على وحدة الدين واللغة . كتب " جلاى " احد موظفى الاقامة العامـــة بعنوان " المدرسة الفرنسية لدى البربر " مايأتى .. يجب ان نحذف تعليــم الديانة الاسلامية واللغة العربية من مدارس البربر وان تكتب اللهجات البربريــة بحروف لاتينية [1] ومن الخطوات العمليـة الاخرى التى اتخذت للتفريق بـــين العرب والبربر وجعل كيان مستقل لكل منهما ان " استصدرت فرنسا من السلطان عام ١٩٣٠ مرسوما عرف بالظهير البربرى ينص على الاعتراف بكيان بربرى مفترق عن الكيان العربى وبعادات وتقاليد بربرية مفترقة عن العادات والتقاليد العربية الاسلامية وتأليف هيئات قبائلية باسم الجماعات للنظر فى شئون القبائل البربرية . ووفق عاداتها وتقاليدها القديمة وجعل لكل جماعة سكرتيرا فرنسيا ليكون الموحى النافذ فى مختلف هذه الشئون . وذلك تنفيذا لخطة التفريق بين سكان مراكش الذين غدوا شعبا واحدا طابعه العام العروبة والاسلام وآثارة النعـــرات بينهم وسلخ القبائل البربرية عن الاسلام والعروبة وتهيئة المجال للتبشير بالنصرانية بينها مرفقا بدعاية اهل البربر الاوربى وديانتهم المسيحية وكون العروبة والاسلام اجنبيين عنهم وهى نفس الخطة التى سارت عليها فى الجزائر " . وقد استعملت

---

(١) الحركات الاستقلالية فى المغرب علال الفارسى ص ١٦٢ و١٦٣

كل الاساليب لسلخ الجزائر عن الوطن العربى وكان مما سلكته فى هذا السبيل اغراء الجزائريين كى يطلبوا الحصول على الجنسية الفرنسية كى يتمتعوا بكل الحقوق الفرنسية .

والجزائرى متى حصل على هذه الجنسية يشترط فيه ان يخضع خضوعا كاملا للقانون الفرنسى من زواج وطلاق وميراث ومعاملات وبذلك ينسلخ نهائيا من عروبته واسلامه . " وهذا بالاضافة الى ماضربته من ستار حديدى كثيف حول الجزائر لتمنع أى اتصال بينها وبين الاقطار العربية الاخرى " المغربية منها والمشرقية حتى تظل فى عزلة تامة عن اى حركة عربية .

وقد وصل هذا الامر الى فريضة الحج حيث انها تتشدد فى السماح بها كل الشدة وتجعلها مقيدة بكثير من القيود والشروط واذا سمحت احيانا فانها لاتسمح الا للموالين لها وتحت اشراف موظفين تثق فى ولائهم لها ايضا .(١)

وبذلك حاولت فرنسا - عمليا - نشر القوميات الضيقة لتجزئة الامة العربية والاسلامية الى اجزاء وعندئذ تضمن - كما توهمت - انعدام الوحدة بين العالم الاسلامى وذهاب قوته . ولم يكن الفرنسيون وحدهم فى هذا الميدان بل وجدنا الانجليز يعملون لنفس الهدف ففى وادى النيل " اخذوا يبذلون الجهود الكبيرة فى دس الدسائس علنا وسرا لاثارة البلبلة والفت بين مختلف فئات السودان جنوبه وشماله ثم بينه وبين مصر لجعله بنأى عن تقرير الاتحاد مع مصر ويخاف منه ويجعل الجنوب يطلب الانفصال عن الشمال ويخاف منه . واثاروا مطامع ومخاوف بعض الزعماء فى الوقت نفسه . ولم يقصروا فى اضطهاد كل من يتظاهر ويدعو الى الاتحاد مع مصر او بقاء وحدة الجنوب والشمال (٢) وفى جنوب شرق اسيا ترى القسيس "سيمون

---

(١) و(٢) الوحدة العربية محمد عزه دروزه ص ١٦٧ و١٦٨ و١٨٨

عندما يقدم تقريره الى مؤتمر " لكنو" التبشيرى سنة ١٩١١ يبين عوامل الوحدة عند المسلمين التى من أهمها العقيدة والحج ثم يقول ردا على آمال المسلمين :

"ولكن عبثا يبنى هؤلاء آمالهم على الجامعة الاسلامية لان التربية النصرانية قد انبثت فى دمائهم بفضل مدارس التبشير وباحتياطات استخدمتها حكومة هولنده من اصول الدين النصرانى ومن شأنها ان تزعزع آمال المسلمين الباطلة .

وقال بعد هذا فى ختام تقريره : ان العامل الذى جمع هذه الشعوب وربطها برابطة الجامعة الاسلامية هو الحقد الذى يضمره سكان البلاد الفاتحين الاوربيين ولكن المحبة التى تبثها ارساليات التبشير النصرانية ستضعف هذه الرابطة وتوجد روابط جديدة تحت ظل الفاتح الاجنبى[1] وبذلك يظهر لنا ان العدو يستغل كل شيء لتفتيت وحدة المسلمين حتى المحبة التى يزعمون أنهم ينشرونها كانت لهدف وهو ان يرتبط المسلم بهم بدل ان يرتبط باخوته من المسلمين .

وننتقل الى عمل آخر استغل ضد الوحدة وهو البحث عن الاثار ان هذا العمل يبدو فى ظاهره علميا ولكن اعداء الاسلام لم يرضوا أن تفوتهم الفرصة هنا بل قد استغلوها .

ان الانسان دائما له مثل اعلى يرتبط به والمسلم - تبعا لعقيدته - مثله الاعلى رسول الله صلى اللهعليه وسلم واصحابه من بعده ومن شذ عن ذلك كان بسبب ان العقيدة لم تتمكن من قلبه وهم قلة لاتخلو منهم أمة ولكن العدو اراد ان يجعل هذا - اى اتخاذ مثل اعلى غير اسلامى - هو السمة العامة بين المسلمين حتى يكون لكل شعب مثله الاعلى الذى يختلف عما هو عند شعب آخر وفتش ووجد ضالته فى حركة البحث عن الآثار .

(١) الغاره على العالم الاسلامى ص ٦٢و٦٣

فعند ما تم اكتشاف آثار فى معظم البلاد الاسلامية تغيرت افكار كثير من اهل هذه البلاد فاخذوا ينظرون الى اجدادهم وهم صانعوا هذه الاثار نظرة اعجاب وتقدير وبالغ البعض فنسى فخره باسلامه اوعلى الاقل ضعف حماسة له واتجه الى من اعتقدهم صانعى المجد يفخر بهم .

واستغل العدو نار هذا الحماس بالمبالغة فى عظمة هؤلاء الاجداد وانهم ساهموا فى بناء المدنية الاسلامية وبرغم ظهور سوء النية هذه لم يستطع احد ان يقول هنا خطر ولو قالها احد لرد عليه ابناء وطنه قبل غيرهم ولنظروا اليه نظرتهم لانسان لايعى مايقول . حيث يسلب بلده مجدا - كما يزعم اهل الفخر بالاجداد - اثبتته الآثار وهذا الخطر وقع فيه معظم البلاد الاسلامية ووجدنا الفخر عند كل بلد بما كان قبل الاسلام وهنا نرى كل بلد اسلامى يفخر على الاخر وهو لايدرى انه يقطع روابط اسلامية كانت هى الاجدر بالبقاء .

وبعد اكتشاف الاثار كان تأليف الكتب فيها وكان تدريس هذه الكتب فى المدارس وامسك الطفل بهذه الكتب وهو لازال يحبو نحو المعرفة وعرفوه ان هذا مجده ومجد آبائه واجداده .

ولا يخلو كتاب من هذه الكتب من بيان فضل هذا البلد على غيره من البلدان وبذلك نكون قد ربينا الطفل منذ نعومة اظفاره على الاقليمية الضيقة شعرنا أم لم نشعر . فاذا ما جاءت بعد ذلك الدروس الدينية التى تدعو الى أمة واحدة فان هذه الدروس تجد فكرة القومية الضيقة قد تمكنت من عقل الطفل واصبح كما يقول الشاعر :

أتانى هواها قبل ان اعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

واذا كنا لا ندرك هذه النتيجة فان العدو قد ادركها منذ زمن بعيد واخذ يبني عليها نتائج توصل اليها فعلا . ولننظر الى تعليق "ك . ك . برج " على الكشوف التى قام بها الغرب فى اندونيسيا حيث بين أن : " الضرر الذى عاد على مسلمى اندونيسيا انهم كانوا اولا ياخذون مثلهم العليا من المسلمين . وبذلك كانوا يقتدون بالمسلم سواء كان صحابيا او غيره فى كل مايتعلق بالاسلام وهذا يربطهم دائما بدينهم .

اما بعد هذه الاكتشافات فقد تغير الامر واتخذ الشبان الجاويون كما يقول مثلا عليا فى البطولة من شخصيات التاريخ الغابر[1] وبذلك وضع ضررا لم نتنبه نحن الا موءخرا .

واننى اختم هذا الكلام فى قصد العدو بما جاء فى مذكرات اغا خان عن ضباط بريطانيا الذين شجعوا الحركة القومية للوقوف امام فكرة الدولة الاسلامية يقول" اما لورانس" منفذ سياسة بريطانيا آنذاك فيقول مصورا ذلك الهدف فى كتابة " اعمدة الحكم " . واخذت طول الطريق افكر فى سوريا وفى الحج واتساءل هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية وهل يغلب الاعتقاد الوطنى الاعتقاد الدينى .

وبمعنى أوضح هل تحل المثل العليا السياسية محل الوحى والالهام وتستبدل سوريا مثلها الاعلى الوطنى ؟ هذا ماكان يجول فى خاطرى طول الطريق[2]

---

(١) انظر الى البحث الذى كتبه فى كتاب وجهة الاسلام

(٢) عن كتاب معالم الثقافة الاسلامية تاليف الدكتور عبد الكريم عثمان

هذا هو لورانس وكم من لورانس كان بالبلاد الاسلامية وماكانوا يريدونـه قد تحقق بالفعل .

وبعـد :

فقد اصبحنا امام المشكلة وجها لوجه واصبح واجبنا الاول ان نحاول الخروج والا كنا اول من يجنى الثمرة المرة التى تثمرها تلك الشجرة الخبيثة مع يقينى اننا بدأنا من مدة نجنى هذه الثمرة .

ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ونحن حين نحاسب انفسنا لنعرف كيف وصلنا الى مانحن فيه سندرك الخطوات التى قطعناها حتى وصلنا الى ماوصلنا اليه .

وستكون اول نتيجة لمحاسبة انفسنا هو ان نعرف اننا مذنبون فاذا ماوصلنا الى هذا فاننا يجب الا نقف طويلا عند هذا بل يجب ان نعرف مباشرة ان اول مايجب على المذنب هو التوبة .

والتوبـة من شروطها الندم والاقلاع عن الذنب والذنب هنا كان فى سلوك اسباب الشعوبية والقومية والاقلاع عن الذنب هو ترك الاخـذ بهذه الاسباب مع الاخذ بالاسباب التي اوصلت اول هذه الامة الى وحدتهم التى كانت سبب عزهم ونجاتهم فى الدنيا والاخره والامر ممكن ولكنه ليس بالسهل .

وهـذه بعض الخطوات التى يمكن الاخذ بها :

اولا : على الاشخاص الذين انتفعوا بالشعوبية والقومية ان يتقوا الله وان يضحوا بتلك المصالح الدنيوية طمعا فيما عند الله .

ثانيا : بالنسبة لمناهج التعليم يجب تطهيرها من كل مايدعو - تصريحا او اشارة - للقوميات الضيقة حتى ينشأ الصغار على وحدة الامة لا على تفرقها .

ثالثا : اصدار فتوى اجماعية من علماء المسلمين تبين الحكم الشرعي في من يدعو الى القوميات وفي من يفخر بما كان في الجاهلية على ان تصدر الكتب المقرره وبخاصة كتب التاريخ والجغرافيا بهذه الفتوى .

رابعا : ان ينأى العلماء بانفسهم عما يحصل بين البلاد الاسلامية من منازعات حتى يكون اجتماع العلماء دليلا امام المسلمين على وحدة الامة .
وان يكون عمل العلماء الاول هو اصلاح ذات البين .

خامسا : وضع خطة يقوم بها العلماء وتنفذ اثناء فترة الحج لبيان وحدة الامة مهما اختلفت البلاد والالسنة والالوان ..

هذا (وكفى بربك هاديا ونصيرا) .